الخطبة الخمسون

الغرور والكِبْر والتألي على الله تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْد للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

1- النعم التي علينا هي من فضل الله وكرمه، وهي من تقديره وبعلمه وقوته، فالإنسان قد يصبح ناجحًا في ماله، في منصبه، في قوته وسطوته، في علمه، هذا النجم الناجح قد ينسى الله عز وجل، وقد ينسى فضل الله تعالى عليه، وقد يتوهم أنه هو بقدرته وذكائه وبجده ونشاطه قد وصل إلى هذه النجومية أو النجاح، أو حقق هو ما لم يستطع غيره تحقيقه، فيعزو لنفسه السبب وينسى المُسَبِّبْ، فتكون هذه هي الهاوية بالنسبة له.

هذا الدرس شرحه لنا ربنا سبحانه في سورة الكهف من الآية (32 - 44)، قصة أصحاب الجنتين، صورة متكررة في كل زمان ومكان لذلك جعلها الله سبحانه قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، وهذه القصة فيها من التعبير والتحليل عن النفس البشرية التي قد نراها كل يوم.

1- قد تراها في شخص آتاه الله علمًا فهو يتكبر على غيره ممن هو أقل منه، 2- تراها في رجل صائم قائم يرى أنه بلغ الفردوس الأعلى بصلاته وصيامه، 3- تراها في رجل غني قد يصلي وقد يتصدق ولكن بترفع وكبرياء أو بازدراء للآخرين، 4- تراها في رجل قوي يظلم ويطغى معتداً بقوته، 5- تراها في رجل أنجب عشراً من الولد أو

أكثر يتباهى بقدرته وبأولاده وما إلى ذلك، هؤلاء إن اعتقدوا بأنهم هم السبب فيما حَصَّلُوه وجَنوه، إذا اعتقدوا بقدراتهم ونسبوا إنجازاتهم إليهم، فهؤلاء قد وقعوا بغرور الإنجاز، وغرور التفوق، والغرور البشري.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: 96/ 6- 7].

الإنسان يطغى إذا اعتقد بأنه الفاعل وأنه المُنْجِز وأنه المُنَفِّذ وأنه القادر، وما اعتقد ذلك إلا لأنه نسيَ ربه وخالقه والمنعم عليه، فيكون في حكم المستغني عن ربه؛ لأنه نسب الفعل والقدرة لنفسه من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: 17/ 83].

لما جاءته النعمة وحقق النجاح اعتقد بنفسه وبقدرته وأعرض عن ربه والمُنْعِم عليه والمُقَدِّر عليه الأفضال والنعم والنجاح، ولنذكر بنود القصة:

1- جعل الله تعالى لأحد الرجلين: ﴿جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 18/ 32]، ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 18/ 33]، والجنتين فاضت محاصيلهما، من فَعَلَ كُلَّ هذا؟ من أنبت النبات والشجر والتمر، وجعل الماء من خلال الجنتين؟ الله سبحانه وتعالى.

2- واغتنى الرجل وزادت ثروته بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: 18/ 34]، بفضل مَنْ؟ بفضل الله تعالى وقدرته وكرمه.

3- وما هي نفسية الغني، محاورته لصاحبه بقوله: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 18/ 34]، من أعطاك المال؟ الله سبحانه وتعالى، من أعطاك الولد والذرية؟ الله سبحانه وتعالى، وماذا كان قوله (أنا)؟ أين المُنعِم؟ أين المتفضل؟ أين الرازق والعاطي والواهب؟

(أنا) نَسَبَ الفضل إليه! (أنا) تحمل في طياتها الفوقية، والغرور البشري.

4- ثم ماذا يحصل للنفسية البشرية عندما يدخلها الغرور والفوقية، قال تعالى:

﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهف: 18/ 35]، أنا عندي، أنا أملك، أنا قادر، يكبر الغرور في الصدر ويصل إلى مرحلة التحدي والعياذ بالله، ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ بلغ التحدي منتهاه (أبداً) ونسي أن الذي رزقه وأغناه يستطيع أن يسلبه الرزق ويفقره.

5- ثم ازداد التحدي والغرور وأصبح كِبراً لا حدود له، حتى قاده ذلك إلى إنكار الموت، وذلك لأنه غني وقوي وذو قدرة ونسي الخالق والمقدر، ونسي الموت والساعة.

6- ثم ازدادت المصيبة من أنا الفوقية إلى أنا الغرورية، إلى أنا التكبرية، إلى أنا المتحدية- ثم إلى أنا المتألية على الله تعالى -والعياذ بالله - بقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 18/ 36]، لماذا التألّي على الله لأني أنا أهل لهذا، لأني عظيم، لأني ولأني... أنا أستحق أن أكون غنياً وقوياً ولي عزوة وقوة بأموالي وأولادي، ففي حال أني رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً.

7- واختيار (لئن) هو اختيار تشككي أي أنه لا جزم فيه ولا تأكيد وهذا كفر فوق كفر -والعياذ بالله- حتى أنه يشك في الرجوع إلى الله تعالى، ومع شكّه هذا فهو يتألى على الله سبحانه والعياذ بالله.

8- ثم سأله صاحبه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾؟ [الكهف: 18/ 37]، أي: قبل أن تتكبر وتغتر بحديقتك ومالك وأولادك، أتنسى الذي صوّرك وخلقك من تراب ثم من نطفة، وهو الذي سواك وجعلك على ما أنت عليه؟ وجدد صاحبه وأكد على إيمانه وأكد على عدم الشرك بالله، وعَلَّمهُ الاتكال على الله تعالى وعَلَّمهُ أن المقدر والرازق هو الله سبحانه وتعالى.

وهنا لفتة مهمة وقبل البدء بها أقول -الله أعلم- وأبرأ إلى الله تعالى من الغلط، وهي: أن صاحب الجنتين عندما ذكّره صاحبه بكفره لم يتعظ ولم يعتبر ولم يستغفر وذلك لمدلولين، أولاهما أن الآيات لم تَذْكُر أنه أجاب بشيء، والثاني أن العذاب وقع على أرضه ومائه فجاءه العذاب بقوله تعالى: ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا

زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: 18/ 40 - 41]. فلو أنه تاب وأناب واستغفر لربما عفا عنه الله تعالى، والله أعلم.

وعدم رجوعه وإنابته دليل على أن الغرور بلغ به كل مبلغ، وهذا من نفس غرور إبليس لما رفض السجود لآدم عليه السلام، لأن غروره بنفسه بلغ منتهاه بقوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: 38/ 76].

9- ثم لما نزل به العذاب، وعلم أن من أخذ منه كل شيء هو الذي أعطاه كل شيء.

10- فندم حين لا ينفع الندم بقوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: 18/ 42].

يضرب الله لنا نماذج بشرية في القرآن الكريم، ليرينا الخطأ في النفس البشرية وذلك من رحمته بنا حتى لا نقع بخطأ هذه النماذج.

وقارون من سورة القصص نموذج آخر كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: 28/ 76]، من الذي رزقه وآتاه؟ الله سبحانه وتعالى، لأن الله سبحانه قال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: 13/ 26]، وقال الله عنه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، ولكن بغروره، واعتداده بنفسه وتكبره نسيّ المنعم والرازق بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 28/ 78]، فكان عقاب غروره وتكبره وكفره بالذي رزقه وأعطاه بأن: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 28/ 81]، فهل من معتبر؟ يجب أن تؤمن بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 39/ 62]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: 30/ 40]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزمر: 39/ 52]، وقال تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 7/ 54]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 36/ 83].

وفي غزوة حنين لما رأى بعض الصحابة قوة المسلمين وعددهم قالوا: لن نغلب من قِلَّة، أصبحنا أقوياء، فاعتمدوا على قوتهم وعددهم، فعلمهم الله درساً بليغاً، وجعله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، ليتعظ كل من يغتر بعلمه، بماله، بقوته، بصحته، بجماله أو بمنصبه، لا يفيدك إلا الله، ولا يرزقك إلا الله، ولا يحميك إلا الله، ولا يزيدك إلا الله، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 9/ 25]، ارجع إلى الله سبحانه، توكل عليه، تضرّع إليه، إلتجئ إليه، إياك ثم إياك أن تغتر أو تتكبر، أو تظن أنك قادر، لذلك المسلم الحق في كل صباح وفي كل مساء وكلما سنحت له الفرصة يدعو بما علمنا إياه رسول الله ﷺ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتَحَوُّلِ عافيتك، وفُجاءَة نقمتك، وجميع سخطك» رواه مسلم.

انظر إلى الكلمات ... نعمتك، عافيتك، نقمتك، سخطك ... نعم أنت بين الرجاء والتضرع، والخوف من الله تعالى بدون يأس أو قنوط، وبدون تأَلٍّ وغرور وتكبر، ترجو رحمته وتخاف عقابه.

ونموذج آخر يعلمنا الله إياه في القرآن الكريم في قصة أصحاب الجنة من سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: 68/ 17 – 18].

هؤلاء فتية ورثوا من أبيهم هذا البستان الذي فيه زرع وفواكه كثيرة، وكان أبوهم خَيِّراً يُطْعِمُ الفقراء والمساكين، فلما مات أبوهم وكانوا يلومونه على إعطائه للفقراء، طمعوا وأرادوا أن لا يعطوا الفقراء والمساكين، ونسوا أن الله تعالى هو الرزاق وهو العاطي وهو المتفضل، فأرادوا أن يجنوا الثمر باكراً حتى لا يعطوا الفقراء منه شيء، وأقسموا على هذا الأمر، وتعاهدوا على أن لا يشفقوا على أحد مهما بلغت حاجته وذلك بقولهم: (وَلَا يَسْتَثْنُونَ)، فعاقبهم الله تعالى على تكبرهم وغرورهم ونسيانهم

بأن الله هو الرزاق وهو العاطي، فلما نسوا ذلك وتكبروا على الفقراء ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: 68/ 20]، أي هشيماً يابساً أسوداً، ولم يصدقوا أعينهم حين رأوها حتى أنهم اعتقدوا أنهم أخطؤوا الطريق، فندموا واعترفوا بظلمهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 68/ 33]، عقاب الظلم والتكبر والغرور والتألي على الله تعالى قد يأتي بالدنيا قبل الآخرة.

إذا أقسمت على شيء فقل إن شاء الله، لأنك لا تملك القدرة ولا تملك المشيئة، فيجب أن تُرجِعَ الأمر إلى الله تعالى بقولك إن شاء الله، فاعتمادك على الله، وتوكلك عليه، وقولك إن شاء الله هو تفويض الأمر إليه، وإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى، وتأدبٌ معه سبحانه وتعالى، وإقرارٌ بعبوديتك له وحاجتك له، واعتمادك عليه سبحانه وتعالى.

ولما أرادت قريش معرفة صدق النبي ﷺ ذهبوا إلى اليهود يسألونهم لأنهم أهل كتاب، فأشار اليهود على أهل مكة أن يسألوا رسول الله ﷺ عن فتية ذهبوا أول الدهر ما كان من أمرهم ، فإنهم كان لهم حديث عجيب، وأن يسألوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وأن يسألوه عن الروح ما هي؟ قال: فإن أخبركم بذلك فهو نبي مرسل فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل فاصنعوا فيه ما شئتم، فرجع النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيْط إلى قريش، وقالوا: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ، فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه عن هذه الثلاثة أمور، فقال عليه الصلاة والسلام: «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثنِ أي: لم يقل: إن شاء الله، فتأخر الوحي عنه (15) يوماً، حتى جاء جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها من الله تعالى تنبيهاً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 18/ 23 - 24]، من رواية محمد بن إسحاق، فلا بد من الاستثناء بقولك: إن شاء الله ولا تجزم.

وهذا حال المسلم المؤمن يربط مشيئته بالله تعالى وإرادته بالله تعالى ولا يجزم إلا بإذن الله وبمشيئة الله تعالى، اعتماده وتوكله وثقته بالله تعالى فقط، برئ من حظ نفسه، برئ من كل شيء، ويلتجئ إلى حول الله وقوته، لذلك علمنا رسول الله ﷺ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة»؟ قال: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «لا حول ولا قوة إلا بالله» متفق عليه.

وبسبب هذا الاستسلام لله تعالى بقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله، وبهذا التفويض الكامل لله سبحانه، والاعتراف والإذعان والخضوع له سبحانه، يجازيك الله سبحانه على هذا الإيمان والاعتراف والتفويض بكنوز في الجنة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولا بد من لفتة مهمة وهي كونك مسلماً، هذا لا يعني أنك تفوض الأمر إلى الله وتعتمد عليه ولا تأخذ بالأسباب فهذا خطأ محض، ولكن المسلم يأخذ بالأسباب كاملة بقدر استطاعته ويفعل ما يجب فعله ثم يعتمد ويتوكل ويفوض الأمر إلى الله تعالى، وإليك هذا الحديث في تبيان جرم من تألى على الله تعالى، فعن جندب بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدّث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك» رواه مسلم، فالمسلم لا يتكبر ولا يغتر ولا يأخذ أي صفة من صفات الله سبحانه وهذا هو الشرك بعينه، فالله هو الغفور الرحيم، وهو العليم بذات الصدور، وهو الخبير ببواطن الأمور ومقاصدها، فالتألي هو أن تفرض على الله رأيك -والعياذ بالله- أو أن تشاركه في عمله -والعياذ بالله-، وهذا الذي فعله هو الذي ذُكِرَ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: 89/ 15 - 16].

فليس عطاء الله لأنك تستحق ذلك، وليس حرمان الله لك لأنك لا تستحق ذلك، عطاء الله وحرمانه امتحانات وابتلاءات كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 21/ 35].

ما أنعم الله به عليك إذ استخدمته بحقه ووظفته ضمن شريعة الله تعالى فهو نعمة، وإذا استخدمته ووظفته مخالفاً لشريعة الله فهو نقمة، لأن كل شيء فيه امتحان، فإما أن تنجح في هذا الامتحان أو تسقط، إذا عرفت النعمة وشكرت المُنعم ووظفتها في الخيرات وفي الأعمال الصالحة فقد نجحت، وإذا تكبرت وأصابك الغرور وجحدت المُنعم وصرفت القدرة والمشيئة إلى نفسك فأنت مثل قارون، فاختر يا رعاك الله.

لما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه دخل رسول الله ﷺ عليه، فقالت أم العلاء: رحمةُ الله تعالى عليك أبا السائب، فشهادتي عليك، لقد أكرمك الله. فقال عليه الصلاة والسلام: «ما يدريك أن الله قد أكرمه؟» فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يُكرِمُهُ الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما هو فقد جاءه اليقين والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري، وأنا رسول الله ما يُفعلُ بي» قالت أم العلاء: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً. صحيح البخاري.

قال الحافظ في فتح الباري: إن رسول الله قال ﷺ: «ما أدري ما يُفعلُ بي» موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: 46/ 9]، وكان ذلك قبل نزول آية الفتح: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 48/ 2]، فالفتح مدنية، وسورة الأحقاف مكية، وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أنا أول من يدخل الجنة» مسند الإمام أحمد - وفي السلسلة الصحيحة (11/ 155).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن متَّ من ليلتك فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به» رواه مسلم.

الحديث كله تفويض وتسليم واعتراف بقدرة الله والالتجاء إليه سبحانه.

وعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من قال إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال: هُديت وكُفيت ووُقيت وتَنحَّى عنك الشيطان» الترمذي – أبو داود – صحيح.

قال ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة» حم – خ – ن – عن شداد بن أوس.

وهذا حديث سيد الاستغفار، لأنه تفويض وتذلل واعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى، (أبوء بنعمتك عليّ) أي: أنت المُنعم وأنت المفضل وأنت العاطي ولست أدعي لنفسي أي فضل، (وأبوء بذنبي) أي: أعترف وأقر بذنبي وإسرافي في أمري وتقصيري لا ألوم غيري.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله» د – طب.

دائمًا الالتجاء إلى الله تعالى، دائمًا البراءة من (أنا)، دائمًا الاعتماد على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: 17/ 80].

دائمًا الاعتماد على الله تعالى وطلب المعونة منه، قد أدخل في عمل وأقع في ورطة، ولا أعرف الخروج منها، قد أدخل في زواج وقد وقد ... فيجب أن يكون التجائي إلى الله تعالى مع أخذ الأسباب والحيطة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم